

قراءة محمد أركون الحداثية لإتقان السيوطي

Muhammad Arkoun's modernist reading of Al-Itqan Al-Suyuti's book

محمد نذير أوسالم*

¹ كلية العلوم الإنسانية و العلوم الإسلامية، dz.nadhir@yahoo.fr

تاريخ الاستلام: 2022/01/03 تاريخ القبول: 2022/09/13 تاريخ النشر: 2022/10/08

ملخص:

محمد أركون صنع لنفسه منطلقات، وانتهج مجموعة من المناهج الغربية التي يعتقد أنها صالحة مع كل النصوص الدينية، سواء السماوية أو التراثية مما خطته يد علماء الحضارة الإسلامية، وهو في كثير من آرائه يصدر من معين الاستشراق، ويستند في نقد التراث الإسلامي إلى ما ترجمه المستشرقون، وذلك ما سيُفقد دقة المعلومة، ويذهب عنه الصورة الحقيقية للذي يرمي إليه صاحب الكتاب المترجم. ومن عجيب ما يجنب إليه أركون ترجيحه لآراء المستشرقين في مجالات لا يمكنهم أن يجاروا فيها علماء الإسلام كأمثال الإمام السيوطي، خاصة في مجال التفسير وعلوم القرآن، كما انتقد تربيته لبعض أنواع علوم القرآن، وتعرض لبعض المعارف الدقيقة التي اعتبرها حشوا في كتاب الاتقان، وماهي بالحشو، بل ساء فهمه لها ولم يتبصر، ولعل ذلك بسبب الترجمة الخاطئة لبعض المصطلحات البلاغية. كلمات مفتاحية: علوم القرآن، البلاغة، النحو، المناهج الحداثية، الاستشراق.

Abstract:

Muhammad Arkoun made for himself a starting point, and he followed a set of Western approaches that he believes are valid with all religious texts, whether heavenly or heritage, drawn by the scholars of Islamic civilization, and in many of his opinions he comes from a particular orientalist, and is based in criticism of Islamic heritage on what orientalist have translated This will make the information accurate, and the true image of what the author of the translated book is aiming for.

One of the strange things that Arkoun tends to tend to is his preference for the views of Orientalists in areas in which they cannot compete with Islamic scholars such as Imam Al-Suyuti, especially in the field of interpretation and the sciences of the Qur'an. Rather, he misunderstood it

and did not perceive it, perhaps because of the wrong translation of some rhetorical term .

Keywords: The sciences of the Qur'an, rhetoric, grammar, modernist methods, orientalism.

*المؤلف المرسل

1. مقدمة:

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على نبينا محمد وعلى آله وصحابه أجمعين، وبعد:

لا يخفى على الدارسين للفكر الحدائلي أن المنهج الذي يتبعه أصحابه في تناول الظاهرة الدينية وبالأحرى الظاهرة القرآنية. كما يحلو لمحمد أركون أن يعبر عنها. أو ما يشيع في المصطلح المعاصر "التراث"، فدراسة هؤلاء للتراث تتسم بروح نقدية جريئة لا تحدها حدود القدااسة أو التبجيل أو التسليم، معتمدين في ذلك على مناهج استوردوها من الفكر الغربي سواء في مجال العلوم الإنسانية أو الفلسفية أو العلوم التجريبية لا يستثنون منها شيئاً مما يعينهم على تفكيك التراث، وهم يزعمون علميتها و موضوعيتها، وأنّ نتائجها. حسبهم. أقرب إلى حقائق الأشياء بعيداً عن الدوغمائية الغارقة في الغيب والمثالية المحلقة في الخيال.

ليس لدينا أي اعتراض على استعمال آليات ومناهج جديدة، سواء صنعت في ديار الإسلام أو تم استيرادها، إن كانت عوناً لنا للتعرف على مواطن القوة أو الضعف من تراثنا، فمناهج تراثنا ذات الأبعاد الأثرية والعقلية والمقاصد الدينية والعلمية في الآن نفسه وليدة قرون مديدة إبان ازدهار حضارة الإسلام، وهي ما فتئت تزدهر وتتطور حتى بلغت على أيدي أصحاب النبوغ من أبنائها أوج الكمال، وهي ما تزال تحافظ على ثوابتها مع الاعتزاز بهذا التراث العريض، لا تتجاوز به إلى غيره بانقباض وتجهم، أو تنكر وتحجم كما يفعل الحداثيون حينما نظروا إلى تراث الأمة كنظر الغريب أو أشد قسوة، فرموه بكلّ مثلبة ومنقصة، فلم يعد يروقه إلا الوافد من هنا وهناك، فإن قبلوا شيئاً من هذا التراث فلشيء وافق هواهم وناسب شيئاً من مناهجهم، كأنّ يميلوا في بعض الأحيان إلى ابن مسكويه وأبي حيان التوحيدي أو الفخر الرازي، أو ابن رشد، وهلمّ جرّاً، ولو أنصفوا لعلمو أن

هؤلاء لم يخرجوا عن النصوص وإن أولوها ،مع تقديس وابتهاال لا يخرجهم أبدا من دائرة أهل الإسلام ،ولم يشككوا أبدا في ثوابته ،ولم يرتضوا أبدا تسويته بالأديان الأخرى ،ولا شككوا في كتابه وما حوى قيد شعرة، وهو عندهم كلام رب العالمين دون سواه من الكتب السماوية التي حرفها أتباعها ،وما علم من أحدهم أن أقدم على نقد القرآن بمنهج ادعى أنه الأقوم والأعلم في تعرف الحقائق واكتشاف النقائص ،فإن نظروا في القرآن تأويلا أو تفسيرا ،استنباطا أو تعليما انطلقوا من منطلق التعظيم والتقديس ،ولم يقل أحدهم إن ذلك يتنافى والمناهج العلمية والموضوعية ،وانه اجترار لما سبق أن قيل قبل على عهد الصحابة أو التابعين ومن جاء بعدهم ،إن مثل هذا المنطق هو الذي مشى عليها الحداثيون العرب و قد تعددت مضاربهم وكثرت أشكالهم وإشكالاتهم ، وقد اخترت من بينهم المفكر الجزائري محمد أركون ،الذي اعتنى بدراسات القرآن بمنطلقات جديدة ، أثرت نتائج لم يسبق إليها لا عند المستشرقين ولا المتشعريين من المسلمين . سواء من المحافظين أو المجددين . فكان من بين أوائل دراساته في هذا المجال ،قراءته لـ "كتاب الإتقان" فكيف كانت طبيعة قراءته له ؟ و هل كانت شاملة لجميع ما تقرر في الكتاب و على أي أساس أقام منظومة النقد لهذا الكتاب ؟ .

و الهدف من هذه الدراسة هو الإشارة إلى طبيعة هذه القراءة المتجزئة و التي أشارت إلى منهجية أقيمت على الانتقاص للتراث وحملت كثيرا من الملاحظات التي لا ينفرد أركون بها وحده ،بل يشاركه فيها غيره من الجهتين الإيجابية والسلبية ، ولم تكن قراءته لكل الكتاب بل اقتصر على بعض الجوانب التي تخيرها بدقة وإحكام مما يخدم أهداف الفكر الحداثي في تناول الوحي وما احتف به بكثير من التشكك ورميه بالتاريخانية والأسطرة بعيدا عن كل ثبات وتقديس ومعقولة .

و اتبعت في هذه الدراسة المنهج الذي يقوم على الوصف و التحليل و النقد ، و قسمت البحث إلى مبحثين ، الأول جعلته مدخلا تعريفيا للإمام السيوطي و للمفكر أركون مبينا نشاطهما العلمية ، و الثاني ذكرت فيه المنطلقات الفكرية لأركون في قراءته النقدية لكتاب الإتقان ، ثم خاتمة ذكرت فيها أهم ما تقرر من نتائج البحث .

2. مدخل تعريفى:

1.2 تعريف بالسيوطي ونشاطاته العلمية:

فالسيوطي هو عبد الرحمن بن أبي بكر بن عثمان بن عثمان بن محمد بن خضر بن أيوب بن محمد بن همام الخضيرى نسباً، المصريّ بلداً الشافعيّ مذهباً، ولد شهر رجب عام 849 هـ / 1445م، المتوفى عام 911 هـ / 1505م.¹ حكى السيوطي عن نفسه وترجم لها قبل أن يحكي عنه غيره، وجاءت تفاصيل حياته في كتابه المشهور "حسن المحاضرة"، وفي كل ذلك يشيد بنفسه ويتحدث بنعمة ربّه عليه، ولذلك جاء كتابه الثاني بعنوان "التحدث بنعمة الله"، بعد أن سرد شيئاً عن صباه وحفظه للقرآن ومتون العربية والفقه، وملازمته لبعض الشيوخ الذين تكوّن على أيديهم في شتى الفنون، كالنحو واللغة والفقه، ومن أبرزهم علم الدين البلقينيّ ثم ولده، ثم لزم شرف الدين المناوي، وحيد الدين الكافيجي، ليطلعنا أثناءها عن مجموع العلوم التي برّز فيها، ونال فيها قصب السبق، يقول: "ورزقت التبحر في سبعة علوم: التفسير والحديث والفقه والنحو والمعاني والبيان والبديع نعلی طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة، والذي اعتقده أن الذي وصلت إليه من هذه العلوم السبعة. سوى الفقه. والنقول التي اطلعت عليها فيها، لم يصل إليه، ولا وقف عليه أحد من أشيائي فضلاً عمن دونهم، وأما الفقه فلا أقول ذلك فيه، بل شيخي فيه أوسع نظراً وأطول باعاً.

ودون هذه السبعة في المعرفة، أصول الفقه، والجدل والتصريف، ودونها الإنشاء، والترسل والفرائض، ودونها القراءات، ولم آخذها عن شيخ، ودونها الطب، وأما الحساب فهو أعسر شيء عليّ وأبعده عن ذهني...²

أرى لزماً أن أذكر أهم العلوم التي تخصّص فيها أكثر من غيرها، وألّف فيها كثيراً من الرسائل والمجلدات بلغت الثلاثمائة كتاب، بل أكثر من ذلك كما يرى العلماء المتأخرون كالمستشرق بروكلمان وغيره، وعلى رأس تلك العلوم، التفسير وعلومه، والحديث وعلومه، وعلوم العربية وعلى رأسها النحو، ففي التفسير ألّف الاتقان في علوم القرآن، والدر المنثور في التفسير بالمأثور، ترجمان القرآن في التفسير، قطف الأزهار في كشف الأزهار، لباب النقول في أسباب النزول، مفحّمات الأقران في مبهمات القرآن،

¹ - السيوطي، حسن المحاضرة، ط 1، 1418 هـ / 1997، ج 1 ص: 288.

² - المرجع نفسه، ج 1 ص: 289 - 290.

،المهذَّب فيما وقع في القرآن من المعرَّب ، الإكليل في استنباط التنزيل ،تفسير الجلالين ، وغيرها من الرسائل ،وذلك كله يدل على موسوعية اتسمت بها تلك العصور.¹

لا شك أن في الجمع الكثير ما يُؤاخذ عليه السيوطي في بعض الأحيان خاصة إذا أورد بعض الأحاديث الواهية ،والأقوال الضعيفة التي صارت معولا في يد كثير من المستشرقين والحداثيين ،كالقول الذي جاء فيه بأن القرآن المنزل على ثلاثة أضرب ،منها ما نزل به جبريل بالمعنى وأن الرسول عبر عنه باللفظ العربي² ،فمثل هذا الكلام لا سند له لا من القرآن ولا من السنة ،بل يُناقض المعهود من كلام الله في آيات كثيرة .ربما يكون مثل ذلك لأسباب كثيرة ،يتأثر فيها المؤلف بالاهتمامات العلمية التي يبرز فيها ،فيسرد الأقوال سردا ،ويضعها بين أيدي العلماء لينظروا فيها وينقدوا ،وتلك طبيعة تلك الكتب التي كان يؤلفها أمثاله ،فهي مطولات دقيقة في معلوماتها خفية في كثير من تعابيرها ومصطلحاتها لا تصلح لغير المتخصصين ،وشيء آخر أراه إيجابيا ،هو أن إيراد تلك الروايات يدل على نزاهة علمائنا وأنهم لا يخافون ممن قد يستغلها في قلب الحقائق ،لأن أهل الشأن سينبرون لكل مشكك مشبه .

2.2 تعريف بالمفكر أركون ونشاطاته العلمية:

ولد محمد أركون عام 1928م في تاوريرت ميمون ،وهي دشرة في منطقة القبائل الكبرى من عرش بني يني ،ومن عائلة متواضعة ، درس المرحلة الابتدائية في قريته ،ثم انتقل إلى عين الأربعاء آنذاك كانت تابعة لمقاطعة وهران ،والآن تابعة لولاية عين تموشنت ،حيث كان والده يشتغل في التجارة ؛وتلك الرحلات التي عاشها أثرت في نفسه وخلّفت فيها ذكريات كثيرة قاسية أحيانا وحانية أحيانا أخرى ، وإنّ تميّزه في الدراسة بـكوليج collège الآباء البيض بأربعاء بني يني ،مكّنه من تلقّي منحة ليوصل دراسته الثانوية ،فانتقل إلى ثانوية "لاموريسير" . ثانوية باستور بعد الاستقلال . ثمّ بعدها ينتقل من وهران إلى الجزائر ،حيث سيواصل دراسته الجامعية ،وكان يطمح في دراسة اللغة العربية وإذا به يفاجأ ،بل ويتألم عندما علم بأنّها لا تدرّس في هذه الجامعة ، واحتجّ على ذلك كثيرا وأبلغ صوته إلى كبار المسؤولين ،ولكنّ أمله لم يتحقّق في بلده ،فانتقل بعد أن أحرز شهادة الليسانس ،إلى فرنسا ليوصل الدراسات العليا

¹ - ينظر :حسن المحاضرة ،ج1 ص: 291 .

² - السيوطي ، الإتقان ، ج1 ص: 139 .

بالسوربون، حيث حصل على شهادة الأستاذية في اللغة العربية وآدابها؛ هناك التقى بكبار الأساتذة والمفكرين، وبعض الوجوه اللمعة في عالم الاستشراق: Regis Blachère Louis Massignon ، و Henri Laoust Robert ؛ ثم أخذ يتدرج في مدارج الشهادات والتعليم ، وكان موضوع رسالته في الدكتوراه حول فكر مسكويه ، وتقدم فيها بنجاح عام 1969م ، والرسالة نشرت بعد ذلك بعنوان "نزعة الأنسنة في الفكر العربي" عام 1982¹.

له مؤلفات كثيرة ، أغلبها باللغة الفرنسية وقد ترجم الكثير منها إلى اللغة العربية تلميذه الوفيّ هاشم صالح منها: أين هو الفكر الإسلامي المعاصر ، نزعة الأنسنة في الفكر العربي ، تحرير الوعي الإسلامي، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل ، الهوامل والشوامل حول الإسلام المعاصر، الإسلام الأخلاق والسياسة ، الفكر الإسلامي نقد واجتهاد ، الأنسنة والإسلام مدخل تاريخي نقدي ، تاريخية الفكر العربي الإسلامي ، وقد أقيمت ندوات حول فكره نحو ندوة نظمها مركز دراسات الوحدة العربية تحت عنوان (محمد أركون : المفكر والباحث والإنسان)؛ بالإضافة إلى عشرات الدراسات حول فكره، توفي في 14 سبتمبر 2010 م عن عمر ناهز 82 عاما ودفن في المغرب .

3. أركون ومنطلقاته الفكرية في قراءته النقدية للإتقان :

1.3 تمهيد:

كانت دراسة محمد أركون في مراحلها الأولى تتجه نحو الأدب ، ولكنه سرعان ما تأثر بالأجواء الفكرية في المجالات الأخرى للعلوم الإنسانية ، فانتقل اهتمامه إلى مجالات الإسلام وهو ما أطلق عليه "الإسلاميات التطبيقية" ، ويعتبر نفسه فاتحا لهذا المجال في دراسة المظاهر الفكرية والتاريخية والعقلية والقرآنية والتشريعية التي رافقت المسلمين منذ أربعة عشر قرنا ، وسمّاها بذلك الاسم الذي لم يسبق إليه لتقابل "الإسلاميات الكلاسيكية" سواء عند المسلمين التقليديين أو عند المستشرقين ، الذين لم تعد دراساتهم مجال الوصف وتحقيق التراث والفيلولوجيا فذلك علم شكلاي لا يكفي في

¹ - ينظر : رشيد بن زين ، المفكرون الجدد في الإسلام ، ص: 87-90 ، و ينظر : أركون ، التشكيل البشري للإسلام ، 2013 ، ص: 9-20 .

التعريف بالتراث بكل مكوناته العقلية والنقلية؛ فأركون وإن درس على بعض المستشرقين أو قرأ لهم، وأنهم عمدته في المادّة العلمية التي ينطلق منها في نقد التراث وتفكيكه، إلا أنه ينتقدهم، ويرى أنهم لا يبتعدون كثيراً عن سواهم من المسلمين فقهاء كانوا أو كلاميين أو مفسرين أو محدّثين في عصورهم السابقة أو اللاحقة، لاستوائهم في كثير من الاهتمامات، وإن اختلفت الخلفيات، "وهو الإطار الذي بلور ونشر أثناء الفترة الكلاسيكية من علم الإسلام، ثم أصبح متقطّعا، مشتمّاً، وفقيراً أو مفقراً عن طريق النزعة السكولاستيكية الإسلامية بعد القرن الثالث عشر الميلادي. ولكن أعيد تنشيطه على هيئة النقل الوصفي، السردى الخطي، المستقيم من قبل التبخر الأكاديمي الاستشراقي، وقد قيّد أفكاره حول القرآن وتدوينه وتاريخه وتفسيره وعلومه في كتب كثيرة، من أهمها وأوسعها بحوثه الطويلة في كتابه القديم الجديد "قراءات في القرآن" الذي ترجم من اللغة الفرنسية بعنوان (Lectures du Coran) إلى العربية بالعنوان السابق.

ففي مقدّمته العامّة تكلم عن "الإتقان" أولاً، ثمّ عن مادّة "القرآن" في الموسوعة الإسلامية¹، فكأنما أراد أركون بهذا الصنيع أن يقارن بين المحتويين والمنهجين المتبعين في كلا العملين، السابق عند السيوطي واللاحق عند المستشرق أ. ت. ويلش، والمغزى البعيد من المقارنة هو "تقييم مقارن للممارستين أو المنهجيتين الثقافيتين والعلميتين المذكورتين: أي الإسلامية والاستشراقية، إنما نريد إجراء تحليل نقدي لكل منهما لكي نكتشف بأسلوب أفضل المسائل التي بقيت في دائرة المستحيل التفكير فيه، ثم نقيس مدى حجم اتساع اللامفكر فيه في كل من هاتين المنهجيتين الإسلامية القديمة والاستشراقية الحديثة".²

2.3 مقارنة بين إنتاج السيوطي والإنتاج الاستشراقي في مجال علوم القرآن:

رأيت أن أبدأ بهذه المقارنة، لأن المؤلف هو من اختار ذلك في بداية مقدّمته العامّة، بعد أن عرض لمختلف أنواع التعامل مع القرآن، وقد رأى أنها مجرد تعاملات سطحية إيديولوجية اجترارية، بعيدة عن الدقة المعرفية والمناهج العلمية، والفكر الحرّ والنقدي، وللتّمييز بين تلك الصور المختلفة

¹ – THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM/LEIDEN – E.J.BRILL(1986).

² – أركون، قراءات في القرآن، ص 45.

لأشكال التعاملات مع القرآن اختار أن يقارن بين نصين اثنين، لعلمين اثنين، أحدهما السيوطي في كتابه "الإتقان في علوم القرآن"، والثاني ويلش من خلال مادّته عن "القرآن"؛ وما اختياره لهما إلا لكونهما يمثلان تيارين كبيرين في البحث العلمي وصناعة المفاهيم في المجال الديني على وجه الخصوص.

فألّذي يريد أن يخلص إليه أركون، هو معرفة ذلكم التشابه الكامن في ثنايا الكتابات التراثية والاستشراقية، فكأنما أصيب بخيبة أمل، حينما لم يجد في الدراسات الاستشراقية شيئاً جديداً يستند إلى المنهجية العلمية الناقدة، التي يتعد بها أصحابها عن معاني التبجيل والتقديس، وإن لم يبرأ المستشرقون من بعض الذاتية التي تدفعهم إلى أن يدسّوا في دراساتهم بعض ما قد يُغضب المسلمين الكلاسيكيين.. كما اعتبر عمل السيوطي عملاً موسوعياً لم يُسبق إليه، بل لم يُنسج اللاحقون على منواله، وكلّ من جاء بعده فهو عالة عليه، فمنهجه يحمل إيجابيات كثيرة مقارنة بكتابات المعاصرين، ويصفه بأنّه "أكثر غنى وانفتاحاً على العلوم المرسخة خلال تسعة قرون لدى أجيال عدّة من المسلمين المتبحرين في موضوع القرآن"¹، وبكونه أيضاً سبباً في التمكين من أخذ "فكرة دقيقة عن المشكلات المطروحة والحلول المقترحة والتّخوم النهائية المثبتة من تراث الفكر الإسلامي".²

تلك هي بعض الإيجابيات التي ألح إليها أركون، ولا ريب أنّها صحيحة، ولكن ما الدّاعي إلى مثل هذه المقارنة بين ما كتبه السيوطي وما ألفه مستشرق لا صلة له بهذا التراث، وذلك ما تساءل عنه أركون نفسه، حينما قال: "أليس من الظلم أن نقيم مقابلة بين نص عربيّ قروسيّ قديم مرتبط بالتنقيب البحثي الكلاسيكي الإسلامي، ونص حديث العهد جدّاً ويعود إلى مستشرق أوروبيّ".³ يمكن القول بأنّ مبدأ الكتابة لدى الرّجلين. في موضوع ذي علاقة بكتاب يقدّسه الأول ولا يقدّسه الثاني. مختلف جدّاً، فالسيوطي إنّما يقصد بإتقانه خدمة كتاب الله، وقد جعله مقدّمة

¹ - قراءات في القرآن، مرجع سابق، ص 45.

² - المرجع نفسه ص 45.

³ - المرجع نفسه، ص 45.

لتفسيره "مجمع البحرين ومطلع البدرين الجامع لتحرير الرواية وتقرير الدّراية"¹، وقد ضمّن مقدمته كلّ معاني التعظيم والتبجيل والثناء على الله . جلّ جلاله . ، أمّا المستشرق فلم يكن له في مقدمته إلا عرض تقنيّ يحمل لعناصر الموضوع ، ثم انتقل إلى تحليلها واحدة تلو الأخرى ، ولو تأملها المتأمل لوجدها مستمدّة من مثل كتاب السيوطي ، وقد جاء ذكر اسمه مرّات . كما نبّه عليه أركون نفسه . مع اختلاف ظاهر في تحليل المادّة ، التي لم تكن وفق مناهج علماء القرآن ، أو علماء القراءات ، أو علماء التفسير ، بل ضمّنها من المفاهيم ما يخدم الأهداف الاستشراقية ، وذلك مانبّه عليه الباحثون المعاصرون المتخصّصون في الدّراسات القرآنية من حُماة التراث .

وصف أركون تأليف السيوطي بأنه مدرساني سكولاتي² ، "على الهيئة التي فرض نفسه عليها لدى الموسوعيين إبان عصر التّكرار والاجترار"³ وهو في وصفه لأعمال المستشرق ويلش يبدو متملّما وإن لم يتعد عمّا علّقه من الأوصاف بأعمال السيوطي ، ويبدو ليّنا معه إذ تنبّجس من كلماته بعض علامات الرّضا المبطنّ حتى يبدو متعاطفا معه ، حين يقول : " أخيرا ، هكذا نجد أنفسنا وقد ابتعدنا كثيرا عن تلك المناقشات الشكلية والأكاديمية الباردة لكيلا نقول السكولانية والمدرسانية الاجترارية التي قدّمها الباحث ويلش في مقالته في الموسوعة الإسلامية . لا ننكر أهمية مقالته وفائدتها ، ولكنه نسي أن يقدّم المنهجية اللغوية الفيلولوجية التاريخية كمرحلة أولى لا كمرحلة نهائية في البحث العلمي . إنها تشكّل مرحلة أولى لا بدّ منها ، كما تشكّل نقطة ارتكاز وقفزة انطلاقية في آن معا بغية التوصل إلى آفاق أكثر اتساعا واغتناء على الدّوام "⁴ وكذلك وصف التبحر الاستشراقي التاريخي . النقدي ، أي بعدم التساؤل عن طراز العقل العامل في هذا التراث ، ودون أن

¹ - ينظر : الإتقان ، مرجع سابق ، ج1 ص: 17 .

² - هذه الكلمة جاءت من الكلمة اللاتينية (scolasticus,d'ecole) أي مدرسانية نسبة إلى المدرسة ، والمصطلح له علاقة بما كان يدرّس في مدارس العصور الوسطى ، فيقولون الفلسفة سكولاتيكية وباللغة الفرنسية la philosophie scolastique . ينظر : القاموس الفرنسي le nouveau littré2006,édition GRANIER,page 1568.

³ - قراءات في القرآن ، مرجع سابق ، ص 49 .

⁴ - المرجع السابق نفسه ، ص: 80 .

يتساءل عن الشروط العقلية التي أدت إلى إنتاج هذه المعارف، أي دون التساؤل عن مدى صحتها أو العكس.¹

لم يُعِدَّ محمد أركون النظر في ترتيب المستشرق ويلش لمادّة "القرآن"، عكس ما فعل مع ترتيب السيوطي لأنواع علوم القرآن في "الإتقان"، بل أشاد بذلك ضمناً في سياق تحليله لمحتوى تلك المادّة، قائلاً فيه: "نسجل للباحت أنّه استعرض في مقالته المطوّلة كل المكتسبات المعرفيّة الّتي توصّل إليها الاستشراق على مدار أكثر من قرن بخصوص القرآن. لقد استعرض ذلك بكل وضوح وإيجاز إلى درجة أن مقالته في الموسوعة الإسلامية تقدّم لنا جرّداً نقديّاً شاملاً ونقطة ارتكاز من أجل انطلاقة جديدة أو في طرح تساؤلات جديدة كانت قد ظلّت مطموسة ومخفية حتى الآن."²

كانت تحليلات محمّد أركون لمادّة المستشرق ويلش أدقّ وأشمل بل وأعمق ممّا فعله أثناء دراسته للإتقان، وبالأحرى للعنصرين المنتقدين عليه، فكأنما اكتفى بملاحظات عامّة، ثمّ أخذ يذهب ذات اليمين وذات الشمال لإظهار ما يراه في التراث من عورات، ولا يرى فيه إلا اجتارا ومروقا عن المناهج العقلية التي تضمّن المعارف الموضوعية الصحيحة، والنتائج العلمية الصارمة.

3.3 مقارنة أفضل في ترتيب أبواب الإتقان وفق معارف ثابتة في علوم القرآن :

إنّ أول ما قام به محمد أركون، حينما أراد أن يُطلعنا على منهج السيوطي في إتقانه، هو النّظر في ترتيبه لأنواع علوم القرآن، إذ أعاد تعدادها ثمّ قام بانتقاد ترتيبها، ولم يتطرق إلى جميع أنواع الكتاب، بل اكتفى بدراسة نوعين اثنين من تلك الأنواع التي بلغت الثمانين نوعاً، دون أن ينخرط في تحليل تفصيلي شامل للكتاب. حسب تعبيره. لسعة المادّة وتشعبها.

سأعمل على إيراد عناوين تلك الأنواع كما أورده محمّد أركون نفسه، لأنّني أرى أهميتها، حتى يبين تحليلها عند مناقشة أركون في نظرتة السلبية إزاء ذلك الترتيب الذي أرى فيه اتساقاً وتناسباً، اختاره السيوطي وفق منطق حصيف.

كما لا يرى أركون سعة المعلومات في كتاب "الإتقان" مزية يمتدح عليها، بل هي إحدى أهم سلبياته، وتنوّع العناوين وتوزيع المادّة عليها لا يعني شيئاً، بل هي لا تعدو أن تكون "معرفة مبعثرة

¹ - المرجع نفسه، ص: 66.

² - المرجع نفسه، ص: 74.

ومقسّمة بلا جدوى إلى أبواب زائدة عن اللزوم.¹ لذلك يقترح تقسيمات تكون أكثر ملاءمة مع تلك المعارف الكلاسيكية، وإنما هدفه الوحيد تحقيق "مقاربة أفضل لتنظيم معيّن لما تمكّن معرفته في ذلك الزمن".²

لخص محمد أركون تلك الأنواع الثمانية من علوم القرآن في كتاب "الإتقان" إلى ثلاثة عشر قسما ممّا يراه يناسب التصنيف الحديث للعلوم، وهي :

أولاً : مسائل التسلسل الزمني للأحداث (الأنواع : 1، 8، 13، 15، 47) ، **ثانياً :** أنماط الوحي وطرائقه (9، 10، 13، 14، 16) ، **ثالثاً :** جمع القرآن ونقله ، **رابعاً :** طريقة التقديم أو الوصف الشكلي للمصحف ، **خامساً :** علم النظم والوحدات النصية، **سادساً :** مفردات اللغة ، **سابعاً :** النحو أو البنية النحوية للنص القرآني، **ثامناً :** التحليل المنطقي . المعنوي للنص القرآني، **تاسعاً :** البلاغة والأسلوب، **عاشرًا :** مشكلات تفسير النص القرآني، **الحادي عشر :** العلوم المشتقة للشكل، **الثاني عشر :** ملحوظات تاريخية ، **الثالث عشر :** قيم تشفعية استغفارية في القرآن.

وحيث تتبّع لتقسيم السيوطي لتلك الأنواع، أدركت أنه ربط تلك المحاور بملايسات زمانية تجمع بين تلك الأنواع، فقدّم الأول فالأول وفق ترتيب زمني دقيق سواء في نزول القرآن، أو في ترتيب تلك العلوم التي سايرت القرآن، سواء في معرفة ملايساته الخاصة كالنزول أو العامة ، كقواعد النحو أو الاستنباط أو غيرها كما سأفصله وفق المراحل الآتية :

المرحلة الأولى : ملايسات النزول وأشكاله (الأنواع : 1، 16)

المرحلة الثانية : ملايسات ما بعد النزول وتماهه، وتشمل هذه المحاور الخمسة بأنواعها :

المحور الأول : العناية بالقرآن ، بجمعه وحفظه وروايته (الأنواع : 17، 35)

المحور الثاني : أدوات الفهم والاستنباط (الأنواع : 36، 52)

المحور الثالث : بيان مواطن قوة القرآن وإعجازه (53، 64)

المحور الرابع : العلوم المستنبطة من القرآن وفوائده (65، 76)

¹ - المرجع السابق، ص: 50 .

² - المرجع نفسه، ص: 50 .

المحور الخامس : التفسير والمفسرون (77 . 80) .

نلاحظ هنا أن الإمام السيوطي قدّم كل تلك الأنواع الست والسبعين وفق ما خطّط له لتكون مقدمات أساسية للمفسّر ، وذلك ترتيب يتفق مع منطق الأشياء ، في معارف علوم القرآن ، تلك ملحوظات عامة عن ترتيب مادة الإتيان ، وبقي أماننا النّظر في اعتراض محمد أركون على موضعيّ نوعين اثنين من تلك الأنواع الكثيرة ، وما دفعه إلى ذلك الاعتراض إلا تنكّره للمعارف - حسب تعبيره - الاجتزائية القديمة ، وفي ذلك يقول بعد ترتيبه المقترح : "وجود نوع من اختلال التوازن الواضح بين المكان المخصّص للنحو وللمفردات من جهة ، وبين الإلحاح الشديد الذي يحظى به علم البلاغة ، والتحليل المنطقي . المعنوي من جهة أخرى (في الواقع هذا الأخير تتطلبه عملية استنباط الأحكام الشرعية في الفقه ، ومن هنا يأتي الإلحاح عليه) . أما التسلسل الزمني لنزول الآيات والصور وكذلك أنماط الوحي ، فإن لهما انعكاسا مباشرا على تحديد الشريعة ، وهما ضروريان لمعرفة الناسخ والمنسوخ منها على أساس أن الآية الأحدث عهدا تنسخ ما قبلها بعبارة أخرى : نلاحظ أن تسعة قرون من نشأة علوم القرآن وتطورها قد ولّدت مجموعة من المعارف العلمية الموظّفة لتغذية الشعور بوجود أساس إلهي للقانون الديني ، كما أنّها موظّفة لتأكيد السّمة الخارقة لكلام الله ولشروط نقله ولإعادة إنتاجه التي لا تُمَسُّ ضمن هذا المنظور ولا يعترّيبها الشك ."¹

فنقد محمد أركون لم يكن في محله ، فكلامه عن النوع الرابع والسبعين المتعلق بالمفردات لا علاقة له بالنوع الحادي والأربعين المتعلق بإعرابه ، لما بين النوعين من تباين ، فكل منهما كان في محله المخصوص ، فالمفردات نوع تابع للعلوم المستنبطة من القرآن ، ولا يراد بهذا المصطلح الشائع الذي يوازي الألفاظ والكلمات ، ولكنها مأخوذة من معنى الفُرادة أي ما تميّز به بعض الآيات القرآنية من المعاني الجامعة ، كقولهم أعدل آية " إن الله يأمر بالعدل والإحسان " ، وقولهم "أحكم آية " فمن يعمل مثقال ذرّة خيرا يره " وهلم جرا ؛ فهذا النوع من علوم القرآن المستنبطة ، ولا علاقة له بالنحو ولا البلاغة ، وهي ضمن ما يُدرج مع الأمثال أو الحكم في كلام البشر إن صح هذا ، فإدراجها ضمن علوم القرآن لاختصاصها به .

¹ - المرجع السابق نفسه، ص: 51 .

أمّا النحو (النوع الحادي والأربعين :في معرفة الإعراب) فهو ضمن المحور الثاني . من المرحلة الثانية . الذي يجمع الأدوات المعنية بالفهم الصحيح للقرآن الكريم ،ولا علاقة له بما رمى إليه أركون ؛ أما البلاغة فمحورها ظاهر ،كما سبق أن ذكرته .

والناسخ والمنسوخ ضمن المحور الثاني المخصوص بعملية الفهم والاستنباط ؛فمن قواعد ضبط عملية الاستنباط معرفة الناسخ والمنسوخ ،وقد نهج السيوطي في ذلك الترتيب نهج الأصوليين الذين يُدرجون الناسخ والمنسوخ ضمن مبحث دلالات الألفاظ ،ولم يجانب الصواب البتّة ، فتلك هي اختيارات أهل التراث من المتشرّعين ،ممن سَمّاهم محمد أركون "الكلاسيكيين".

وليس في كلامي السابق تحاملا على محمد أركون ولا تنزيها لصنيع السيوطي ،ولكن صاحب الصنعة أعلم بصنعتة ،وكثرة الممارسة تعين على دقة الصنعة ،والتأليف صنعة الإمام السيوطي خصوصا إذا تعلّق الأمر بالمعارف القرآنية من علوم القرآن والتفسير ،فهو صاحبها وابن مجدّها ،لعنانيته بها أكثر من غيرها ،ولا أدلّ على هذا ككثرة تأليفه فيها كما رأينا أثناء ترجمته.

فلو رجعنا إلى تلك المحاور بأنواعها الثمانية لرأينا نظاما فائقا في الترتيب ،بدأ بالنزول وهو أول شيء عرفه الناس عن القرآن ،ثم يأتي بعده العناية بهذا المنزل وهو تابع لا محالة للأول ،ثم يأتي بعدها وضع الأدوات التي تعين على الفهم الصحيح لكلام الله الذي وجب أن ينزّه عن كلّ فهم سقيم .

4.3 نقد العقل الديني التقليدي التاريخاني للسيوطي في تناول علوم القرآن :

قد يمجّد محمد أركون الإمام السيوطي في بعض الأحيان ،ولكن ذلك لا يعني التزكية أو الرضى المطلق ،بل سرعان ما يرمي ذلك كلّّه في زاوية بعيدة لا يكاد يُرى ،ومن أنواع التمجيد :

العالم الضليع في المصنّفات والموضوعات المتعدّدة

. كتاب السيوطي أكثر غنى وانفتاحا على العلوم المرسّخة خلال تسعة قرون .

. سعة علمه وكثرة جمعه وإلمامه بالثقافة الإسلامية تقدّمه على الشيوخ المتأخّرين

. اتبع طريقة الطبري في الجمع ،غرف من منابع التراث ،مّا جعله سببا في إنقاذ المعلومات التي

كادت أن تضيع لولا جهوده تلك وما تقدّم من الثناء صحيح ،والسيوطي يستحق أكثر منه ،وهو من وصف نفسه بأنه جمع من العلوم في قوله : "ورزقت التبخر في سبعة علوم :التفسير

والحديث، والفقه، والنحو، والمعاني، والبيان، والبديع، على طريقة العرب والبلغاء، لا على طريقة العجم وأهل الفلسفة ¹

ثمّ راح أركون بعد ذلك يحاكمه إلى المناهج الحديثة التي يؤمن بها، ويتّخذها وسيلته الأساسية في نقد ما سمّاه **العقل الديني** الذي يقابله **العقل الفلسفي**، فالسيوطي على سعة علمه وتبحره في المعارف العقلية و التّقليدية، إلا أن ذلك لا يخرجّه من دائرة العقل الديني الذي لم يتخلص صاحبه من ربة التقليد للتّسابقين، والتّقدّيس للنصوص الدينيّة بإطلاق، واجترار لما سبق إليه دون تمحيص أو تحقيق، فهو كما يصفه أركون: "ركّز على "الحلول" النهائية التي تحدّد منذ القرن الرابع الهجري الاعتقاد الإسلامي الأرثوذكسي الذي لا يُناقش ولا يُمسّ. لا يكفي القول هنا إن العلماء المتأخّرين كالسيوطي يلتزمون النقل الحرفي الأمين لتعاليم العلماء الكلاسيكيين السابقين فحسب، والحفاظ عليها بصورة تربوية تعليمية دون أي تغيير أو تحوير، لأنّه في ما وراء التبعيّة المعروفة للمقلّدين بُجّاه المجتهدين، لأنّ المهم أن نتبع انبثاق عقل جديد معين انطلاقاً من الخطاب القرآني".²

فالسيوطي بذلك لا يمكنه تجاوز ما ابتكره الأوائل من المناهج في دراسة النصوص، أو ما ابتكره من تقنيات خاصّة في صناعة التّأليف وما إلى ذلك، فالسيوطي إذن لا يملك إلا "المعارف التقنيّة التي جيّسها التراث السكولاتي المدرساني التّكراري الاحترازي".³ ويضرب أركون لذلك مثالين اثنين: أحدهما: اعتماد التحليل اللغوي الموروث من مفردات، وصياغات، ونحو، ومعنى، وبلاغة ونظم، أي لم يأت بشيء جديد البتّة. ثانيهما: اعتماد السرد للمسائل الشائكة دون تحليل، كردّها إلى الواقع الذي وُجدت فيه، لتكتسب بذلك معانيها الحقيقيّة، ليقول بصراحة تامّة: "رغم تحدّث السيوطي عن مشكلات التسلسل الزمني لآيات القرآن ولنقل الوحي. على العكس من ذلك، إنّ الدّهسة تصدّمتنا حينما نلاحظ انتصار وجهة نظر لا تاريخيّة فيما يخصّ كل المسائل الملحوظة".⁴

¹ - حسن المحاضرة، مرجع سابق، ج1 ص: 290.

² - قراءات في القرآن، مرجع سابق، ص 53.

³ - المرجع السابق نفسه، ص: 52.

⁴ - المرجع نفسه، ص: 52.

فأركون لم يقتنع بعد بالمعلومات الواردة في مثل كتاب الإتقان عن تاريخ القرآن ، وجمعه ، وتدوينه ، وظروف الوحي ونزوله ، فقد مات ولا يزال في نفسه شيء من ذلك كله ، بل كان يرى أن أشياء كثيرة لم تُدَوَّن ، وكم كان مبلغ أسفه لحرق مصاحف ابن مسعود - رضي الله عنه - لاعتقاده أنه يحمل أجوبة عن أسئلة دقيقة عن محتوى النص القرآني وسياقاته التاريخية ، ويرى "أنه ما دمنا لم نتوصّل بعد إلى نسخة محققة تماما فإن قراءتنا التاريخية له سوف تظل ناقصة . وعلى الرغم من كل الجهود التي بذلها الاستشراق منذ نولده وحتى اليوم إلا أن تحقيق القرآن لا يزال يعاني من ثغرات مهمة ، ويبدو أن هذه حالة لا مرجوع عنها لأن كلّ النسخ التي كانت معاصرة للقرآن دُمّرت إلا نسخة واحدة هي النسخة الأرثوذكسية التي فرضتها السلطة الرسمية . فلو بقيت نسخ أخرى معاصرة لهذه النسخة كمصحف ابن مسعود وغيره لاستطعنا التوصل إلى صورة أكثر تاريخية أو أكثر حقيقية للنص وكيفية تركيبه"¹ وسمّى المصحف الذي بين أيدينا "النص الرسمي المغلق"² . فالسيوطي إذن لم يستطع التخلص من ذلك السياج الديني اللاهوتي الدوغمائي التاريخي الاجتراري ، فكتاب الإتقان يقدّم "دلائل كثيرة على مدى السهولة والانتهازية التي تميّز العقل الديني عند ما يتحول على غير علم منه إلى عقل أرثوذكسي قاطع مانع جامد متحجّر"³ .

ويتهمهم باللاعلمية حينما يقول عنه إنّه يأتي من الأحاديث ما يخدم مذهبه وآراءه ، وإن كانت مزوّرة ، وأنّه لم يخرج عن إطار المنافسات الأرثوذكسية التي عرفت إبان الحضارة الإسلامية ، مع كثير من المماحكة وعدم البحث عن الدليل الذي يعتد بالعقل دون سواه ، ليخلص إلى نتيجة فاصلة وهي أنّ "هناك أولا انقطاع (لا يحدث بالضرورة انقطاعا روحانيا) مع حياة النبي وأفعاله الحقيقية . هناك ثانيا انقطاع لغويّ قياسا إلى نظام اللغة العربية كما يتبدّى في القرآن ، ثمّ هناك الانقطاع الثقافي المتمثّل بالتقلّص وضيق الأفق بالمقارنة مع الانفتاح الواسع الذي يتحلّى به الشارحون الكبار السابقون كالطبري وفخر الدين الرّازي ثمّ هناك القطيعة العقلية وهي تتمثّل بالفقر الفكري

¹ - محمد أركون ، الفكر الأصولي واستحالة التأصيل (نحو تاريخ آخر الفكر الإسلامي) ، ترجمة هاشم صالح ، ط

3 : 2008 ، ص 45 .

² - المرجع نفسه ، ص: 57 .

³ - قراءات في القرآن ، المرجع السابق ، ص: 55 .

والضمور العقلي قياسا إلى شخصيات إبداعية كبرى كالجاحظ والتوحيدى وعبد الجبار وابن سينا وابن رشد هناك أخيرا القطيعة العلمية قياسا إلى الجهد التنظيري المبتكر لرجل كعبد القاهر الجرجاني في أبحاثه المتعلقة ببلاغة الخطاب القرآني.¹

من خلال ما سبق نتبين أن محمد أركون لا يرى في تلك المعارف الاجترارية عند السيوطي ما يتيح فرصة الفهم الصحيح والإدراك الواعي لمعالم القرآن ومعانيه، وحقائقه وزواياه المختلفة، فتلك "المناهج والمقاربات والإشكالات والمعارف والمواقف العقلية المستخدمة لدى السيوطي وأشباهه هي إمّا بالية عفى عنها الزمن، وإمّا غير مطابقة أو غير صحيحة أو غير كافية".²

من هنا يفتح المجال للمناهج الجديدة للوصول إلى حقائق القرآن، تلك المناهج التي تدمج "الظاهرة القرآنية في الحركة الكبرى للبحث العلمي والتأمل الفلسفي".³

5.3 الّلامفكر فيه والمستحيل التفكير فيه عند السيوطي :

من أهم المنطلقات التي انطلق منها محمد أركون في مشروعه الفكري، الّذي أقامه لقراءة التراث هو عملية تفكيك العقل الدّيني في هذا التراث، واعتبر نفسه في هذا رائدا، وابتكر مصطلحا جديدا أطلقه على مشروعه ذاك، إنه الإسلاميات التطبيقية في مقابل الإسلاميات الكلاسيكية ؛ وما كان له أن يفعل ذلك إلا بعد أن حلّل هذا الفكر الإسلامي الذي يرى أنه أحيط بسياج من الطابوهات والمحرمات، وما أطلق عليه (الممكن التفكير فيه) و(الّلامفكر فيه) و(المستحيل التفكير فيه)، مصطلحات حاكي فيها ميشال فوكو، وكأنّ تحديده لتلك الأطر الاستمولوجية سيمنحه منطلقا صحيحا للولوج إلى حقائق الأمور في علوم القرآن، متجاوزا الحواجز الدينية و الثقافية و الاجتماعية والسياسية، فلا مكان للمقدّس أو المبحّل، وفي النّهاية يصل إلى ما يصبو إليه مشروعه الحالم من " تحقيق هدفين اثنين لا ينفصمان :أولا، إغناء تاريخ الفكر البشري عن طريق إضاءة

¹ - المرجع نفسه، ص: 56 .

² - المرجع نفسه، ص: 56 .

³ - المرجع نفسه، ص: 56 .

الرهانات المعرفية والثقافية الأيديولوجية للصراعات الموجودة بين تلك التيارات الفكرية المتعددة والمختلفة، وثانيًا تنشيط الفكر الإسلامي المعاصر وبثّ الحيوية الديناميكية في ضلوعه وشرائنه عن طريق تركيز الانتباه على المشكلات التي استبعدتها، والمحرمات التي أقامها، والحدود التي احتفظها وأقفها، والآفاق التي توقف عن التطلع إليها أو منع هذا التطلع.¹، وتطبيقاً لذلك المبدأ المقترح سيتم تحديد ثلاث لحظات فيما يخص القرآن من خلال الإتقان :

. زمن الوحي . زمن جمع المصحف وتبنيته كتابةً (11هـ . 324 هـ / 632 م . 936 م)
. زمن الأرثوذكسيات المتنافسة من سنية وشيعية (324 هـ / 936 م) حتى يومنا هذا .² وكل ذلك قد انتقده على السيوطي، وكأنّ السيوطي تجاوز العقلي الفلسفي العلمي، فانزوى في معقل (العقل الديني)، فلم يتزحزح عن الموروث الديني، كما لم يستطع إثارة الحقيقة الصريحة للولوج إلى الأجوبة الصحيحة عن تلك الأزمنة الثلاثة .

ذلك المنطلق الذي دأب عليه أركون لا يدع مجالاً للثوابت والقطعيات والمحكمات، بل كل شيء قابل لأن يعاد فيه النظر، ويشكك فيه، وتبقى سلسلة التساؤلات لا نهاية لها، فاسمع إليه وهو يقول : "عندما نوجه البحث في هذا الاتجاه، نستطيع أن نتبع انزياح الحدود وتغيرها بين الوعي واللاوعي ، أو بين العقلاني واللاعقلاني والخيالي، من ثمّ بين الممكن التفكير فيه وبين المستحيل التفكير فيه وبين اللافكر فيه . ينبغي العلم بأن الممكن التفكير فيه بالنسبة إلى أم |ة لغوية ما في فترة ما، هو الشيء الذي يمكن إيضاحه والتفكير فيه بمساعدة الجهاز العقلي والعمل المفهومي المتوافر في تلك الفترة بالذات . هذا التعريف يحدد فوراً ما هو مستحيل التفكير فيه وإيضاحه في الفترة نفسها والبيئة الاجتماعية - الثقافية عينها، وذلك بسبب محدودية النظام المعرفي وطرز العقلانية الخاص بالنظام الاجتماعي - الثقافي الموجود، أو لأن الذات المتكلمة التي ليست بالضرورة المؤلف - كما عليه الحال بالنسبة إلى محمد ناطقاً بالقرآن - كانت قد تمثلت على هيئة رقابة ذاتية : الإكراهات والقيود المفروضة من الأيديولوجيا المسيطرة (في هذه الحالة إن الكتاب المنحرفين أو المتمردين يستطيعون بعد

¹ - قراءات في القرآن، المرجع السابق، ص: 57. 56 .

² - المرجع نفسه، ص: 58 .

المغامرة بأنفسهم والمخاطرة أن يبرزوا مزايا المستحيل التفكير فيه . كيف ؟ عن طريق انتهاكهم النظام الاجتماعي . الثقافي البالغ في قيمته والمحروس بشدة من كل فئة اجتماعية)¹

إذن التخلص من كل القيود هو الوجهة الصحيحة لفك حصار المستحيل التفكير فيه ، واختراق جدار المعارف القرآنية الموثقة في التفسير وفي مثل كتاب الإتقان ، وأركون يدعو إلى ذلك بكل جرأة حين يقول : " الصعوبة الأساسية بالنسبة إلينا تكمن في مسألة أنه ينبغي لنا أن نخترق . بدءاً من المعارف المتجمعة في الإتقان . الطبقات الرسومية للخيال الإسلامي المتشكل خلال القرون الهجرية الأربعة الأولى . ينبغي أن نخترقها الواحدة بعد الأخرى رجوعاً إلى الوراء لكي نصل إلى زمن الوحي . إن الوعي الساذج الخاضع كلياً للتراث لا يعرف مثل هذه الصعوبة أو هذه المشكلة ، ثم نلاحظ أن السيوطي لا يجد أي إخراج في تأسيس عرضه وأفكاره على شهادات سلسلة من المحدثين يضمن له صحتها الإجماع السنّي ، كما نلاحظ أنه يستخدم بثقة كاملة ما كان فرانز روزنتال قد دعاه (المعرفة الظاهرة) للعصر الكلاسيكي الذي صار بعيداً عنه."² فالممكن التفكير فيه هو البحث عن الكيفية التي تمكّن من " تفسير الصراع المتكرر بين براغماتية العقل ، الذي يدعى الانتساب إلى معرفة متعالية لا تمسّ ، وبين منهجية العقل العلمي الحديث ، الذي يتابع مشروعه من أجل بلورة معرفة واقعية خاضعة للتصحيح المستمر والعودة النقدية على ذاتها ؟ وكيف يمكن تجاوز هذا الصراع وليس تفسيره فقط ؟"³

4. خاتمة:

وفي الختام أخلص إلى أن ذلك المنهج الذي كان يدعو إليه أركون منذ أكثر من أربعين سنة ، صار اليوم حقيقة ماثلة في فكر الحداثيين الذين انزعوا في جسم الأمة ينخرون ثوابتها وقطعيات الدين فيها باسم العقلانية والموضوعية ، ويكمن خطر تلك المنطلقات الأركونية في العودة إلى نقطة الصفر لدى كثير من الباحثين الذين لا يملكون تكويناً شرعياً ولغوياً مع سطحية في الاطلاع على

¹ - المرجع السابق نفسه، ص: 59 .

² - المرجع السابق نفسه، ص: 64 .

³ - المرجع نفسه ، ص: 71 .

الموروث الشرعي، إن لم أقل اطلاع مع أحكام مسبقة مغلوطة، وكثيرا ما يتشبث هؤلاء ببعض ما يمكن أن يعتبر ثغرات في تراثنا، لا يحسن فهمها إلا من مارس قواعد العلم المعهودة عند أسلافنا سواء في علوم اللغة أو الأصول أو علوم الحديث والجرح والتعديل، وما إلى ذلك من القواعد المعتمدة في شتى العلوم لدى المتشريعة، وذلك لا يمنع إعمال القواعد العقلية أو بعض المناهج الحديثة إن لم تصطدم مع موروثنا العقدي والفكري، كعلم اللسانيات مثلا، الذي برع فيه كثير من المسلمين من أهل الغيرة على الدين واللغة، دون إغفال سائر المناهج العلمية والتجريبية إن كانت من أهلها الصادعين بالحق الصادين عن الأوهام.

5. قائمة المراجع:

- 1- أركون، محمد، التشكيل البشري للإسلام، ط 1: 2013، المركز الثقافي، الدار البيضاء، المغرب.
- 2- أركون، محمد، ط 3: 2007، الفكر الأصولي و استحالة التأصيل، ترجمة هاشم صالح، دار الساقى، لبنان.
- 3- أركون، محمد، قراءات في القرآن، ط 1: 2017، دار الساقى، لبنان.
- 4- أركون، محمد، ط 2: 2005، القرآن في التفسير الموروث إلى تحليل الخطاب الديني، ترجمة هاشم صالح، دار الساقى، لبنان.
- 5- رشيد، بن زين، المفكرون الجدد في الإسلام، ترجمة حسان عباس، 2004، دار الجنوب للنشر، تونس.
- 6- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان، تحقيق: مصطفى ديب البغا، دار الهدى، الجزائر.
- 7- السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، ط 1: 1418 هـ / 1997، حسن المحاضرة، دار الكتب العلمية، بيروت. لبنان.
- 8- THE ENCYCLOPAEDIA OF ISLAM/LEIDEN – E.J.BRILL(1986)
- 9- le nouveau littré2006,édition GRANIER,page 1568.